عصر الدولة الوطاسية

بـ التاريخ الحضاري (ج2)

3ـ **الاقتصـــــاد**:

رسم بعض المستشرقين صورة مظلمة للاقتصاد الوطاسي من غير إعطاء أدلة مقنعة لذلك، ونجد خلاف ذلك من خلال المصادر - كحسن الوزان - دلائل قوية عن حركة اقتصادية جيدة في بعض المدن المغربية.

ففي **هسكورة** كانت تنتج الثياب الصوفية لكثرة نتاج الجلود المدبوغة الحاصلة عن كثرة الثروة الحيوانية بالمنطقة. واشتهرت أيضا بإنتاج الزيت بكثرة؛ فكانت ملتقا تجاريا للهذه المادة. واحتوت أيضا عددا كبيرا من الصناع والدباغين والسراجين، ووفرة من التجار اليهود المتواجدين بكل المدن المغربية.

واشتهرت **جازولة** بصناعة أواني النحاس المصدرة إلى باقي المدن، وكانت أهم المناطق المعدنية متواجدة بتسنت وآقا وتيزونين وإغرم. وكانت **مراكش** مركزا لإنتاج القمح ومختلف الحبوب. و**مليلية** مركزا لإنتاج الحديد والعسل. وتنتج **تازا** العنب بكثافة، ويصنع يهودها الخمر المجود. واشتهرت **مكناس** بانتاج الفاكهة بوفرة. وكانت ناحية **السوس** مركزا لزراعة قصب السكر وإنتاج السكر.

أما **فا□ا** فكانت أكبر المراكز الصناعية الحرفية؛ كان بها أكثر من أربعمائة مطحنة، ومصانع للأسلحة، ومائة وعشرين معملا للنسيج - وهو أهم صناعاتها - مكونة من عدة طبقات، وبها مائة وخمسين مصبغة، ومعاصر للزيتون وغيرها. وكان لكل نوع من معروضاتها سماطا خاصا به في السوق، تحت مراقبة المحتسب. وكان سوق العطارين أجمل سوق في ذلك العصر، به الصيدليات البائعة للدواء مقابل وصفة طبية. وازدهرت **تارودانت**، بحركة القوافل إليها، الحاملة تجارة الجلد والتبر وريش النعام والأسلحة والصمغ المحمول من السنغال.

وكان أهم ما يصدره **المغرب** السكر، وكان الايطاليون والاسبان يصدرون من المغرب نوعا من البرانس السوداء المصنوعة **بتفزة** بنواحي تادلا. وكان ب□لا عدد كبير من التجار الجنويين والبندقيين والانجليز والفلامنديين، إذ كان هذا الميناء من أهم موانئ المغرب في تلك الفترة، وكان يتقدمهم الجنويون الذين كانت لبعضهم حظوة عند السلطان.

4ـ **العمـــــران**:

عرفت بعض **المدن** خرابا في هذه الفترة، ومنها مدينة تيد نيست بحاحا، قطنها أكثرية يهودية، □م خربت سنة 920هـ، وغادرها سكانها خوفا من البرتغال؛ وتاكوليت بقرب الصويرة خربها البرتغال سنة 920هـ (1514م)؛ وتنزة بناحية مراكش التي أضعفتها غارات العرب؛ وتاغوداست بدكالة.

على أنه استحد□ت مدن جديدة، على رغم قلة□أر الوطاسيين في العمران، لانشغالهم بالحرب؛ أنشأها بعض الأمراء وخاصة البرتغاليين؛ ومن أهمها:

- **شفشاون** أسسها سنة 876هـ موسى بن راشد من نسل عبد السلام بن مشيش، لمقاومة البرتغاليين النازلين بالساحل، وبقيت بيد بني راشد أزيد من قرن.

- **تطوان** الجديدة: بنيت على أنقاض المرينية التي خربها الاسبان سنة 1500م؛ فأحياها الأندلسيون وعلى رأسهم أبو الحسن علي المنظري (889هـ)، واتخذوها مسلحا للغارة على البرتغاليين بأسطولهم البحري. وكانت مدينة مربعة الشكل، ذات سور مزدوج، عرض جزئه الداخلي سبع أذرع، وبها قصبة، بنيت من الحجر والآجر، وبدورها حدائق.

- **الجديدة**: بنيت على ساحل الأطلسي بمكان كان يسمى البريجة، بنها البرتغاليون سنة 911هـ، بنو حصنا مربعا في وسطه مأجل لحبس الماء، □م سورها، وكان مزدوجا له□□□ة أبواب، أحدها يواجه البحر، والحصن بمركزها.

وقام الوطاسيون ببعض **أعمال البناء** الجزئية، ومنها **قنطرة** وادي الرصيف بفاس، جددوا بناءها. وبنى أحمد الوطاسي □**دا** عظيما على وادي فاس، انهار في عهد المنصور السعدي. وعملت في كثير من المدن المستقلة التحصينات كتطوان وشفشاون ودبدو. وكان البرتغال أكثر عملا في جانب التحصينات، فكانوا أول من استعمل **الأبراج** الخاصة بالمدفعية بالمغرب، يخصصون أهراء عظيمة أسفلها للمؤن والذخيرة. وكانت لهم في ذلك□□□ة نمادج في بنائها؛ فكانت أولا نصف مستديرة كما في سبتة وطنجة، □م أصبحت مربعة كما في أصيلا، وصارت في القرن 16 تلك الأبراج عبارة عن تحصينات واسعة كبيرة كما في أزمور وآسفي واكوز.

ولم يكن للوطاسيين يد في بناء المدارس، في حين انتشر بناءها في ناحية السوس خاصة، على يد بعض العلماء والمحسنين؛ ومنها مدرسة آقا، وتازمورت بسملالة، وآل عمرو، والبرحيلية قريبا من تارودانت.

5ـ **الحياة الفكرية**:

تواصلت الحركة الفكرية في هذا العصر باحتشام؛ إذ لم تنجب فطاحلة كما في العصور السابقة لها، ومع هذا ظل التعليم شبيها من حيث المنهج بسابقه، مع بعض الفتور في بعض مواد الدراسة. وقد أكد الراهب نيكولا كلينار عبر مشاهداته بفاس أن المغاربة اهتموا بدراسة النحو وحفظ الرسالة لدراسة علوم الفقه دون غيرها، بخلاف أهل تونس. إلا أنه فاته أنه بالسوس قد كانت دراسة الرياضيات قد شقت طريقها بعد ركود عام بالمغرب.

ومن أهم **المظاهر الفكرية** في هذا العصر ظهور عدد من كبار الفقهاء ورجال التصوف، ونمو أدب المقاومة والشعر الملحون.

وقد ذكر الوزان أنه كان بفاس سنة 1526م قريبا من□□لاين **كتبيا**. وكانت الكتب تباع بالمزاد العلني يوم الجمعة قرب القرويين، وظهرت في هذه الفترة **الخزانات** العائلية، خاصة بإقليم سوس كزانة الأسرة العمرية. وقد كان بفاس مائتي **كُتاب** فضلا عن المدارس والجوامع، وكان للمعلمين جراية قليلة، وكان للتلميذ يوما عطلة أسبوعيا.

وعلى كل حال قد تدهورت حالة **التعليم** في هذا العصر ويدل على ذلك قلة عدد العلماء المدرسين، وقلة العناية بالتلاميذ، فقد اختفت **المنحة** التي كانت تعطيها الدولة لهم التي تكفل مئونتهم ولباسهم لمدة سبع سنوات، والتي تحولت إلى إحسان أهل فاس.

وتابع الوطاسيون وغيرهم في انشاء عدة **أوقاف** لكراسي التدريس بفاس، ومنها كرسي البخاري بشرح فتح الباري، الذي أنشأه أبو العباس الوطاسي بالقرويين، وشغله عبد الواحد الونشريسي.

أما **الأدب** فقد ضعف بضعف يد الدولة، وكان أغلب **رجاله** من رجال الدين الجامعين بين العلوم وقرض الشعر. وهو لم يخرج عن معهوده في زمن المرينيين من حيث الطول والتزام المحسنات البديعية والزخرف اللفظي، إلا أن أسلوب المقالة قد سلم من ذلك؛ في حين شاع أدب **البطولة** والجهاد ضد المحتل؛ وتميز شعر **المدح** في أكثر الأحيان بعدم المبالغة، كقول أمد بن سعيد الحباك:

بلـــغت آمـــالا ونلـــت مـــقاصدا وغدوت ترجى في الأنام وترهب

بهرت محاسنك الأنام فأصبحت أخبار جودك عن ســعودك تعرب

وأما **الفقه والحديث** فقد ظهر فيه فقهاء كثر على مذهب مالك، وتخصص بعضهم في الفتوى، وكان معظم مواضيع الكتب الفقهية دائرة في شرح خليل والمدونة أو التعليق عليهما. وكان من أشهر فقهاء العصر أبو مالك عبد الواحد **الونشريسي**، ولد بفاس ودرس على والده وغيره، وتولى القضاء بها سبعة عشر سنة، وكان يجمع بين القضاء والفتيا والتدريس، كثير الجرأة على الوطاسيين، سحبه بعض المتلصصين من مجلس تدريسه بالقرويين وقتلوه (955هـ) بعد أن رفض أن يتبعهم إلى مجلس محمد الشيخ السعدي.

أما علوم **اللغة** فقد ضعف الاهتمام بها، وقد ظهر فيها بعض الأعلام منهم أبو القاسم محمد الماجري النحوي (ت 911هـ). وأما **التاريخ** فيبدو أن الوطاسيين كانوا أقل الناس حظا منه، إذ لم يدون تاريخيهم إلا في أوقات متأخرة عنهم. وكذا الحال في **الجغرافية** حيث لم يشهد عهدهم رحلات كبرى تذكر، كرحلات العصر المريني وغيره، عدا أنه ظهر **الحسن الوزان** وهو أهم رحالة عالمي لتلك الفترة، كان كاتبا بمارستان فاس، م عاملا للسلطان محمد البرتغالي، قام بعدة مهمات له، سافر فيها سفرات عديدة، إلى مكة والقسطنطينية وتمبكتو وغيرها.

ولم يشتهر في **الطب** مؤلفون، غير أنه كان المحدث عبد الرحمن سقين يدرس ألفية ابن سينا في الطب بفاس؛ وبخلافها اهتم في هذا العهد **بالرياضيات**، وخاصة الحساب للحاجة إليه خاصة للمشتغلين بمهنتي التو يق والقضاء، وإن كان أكثر الاهتمام به في جانب التدريس لا التأليف. وأما **المو يقى** فقد ظهر الشعر الملحون، حيث كان الشاعر في نفس الوقت موسيقار يلحن شعره بنفسه، وكانت القصيدة تقسم ما بين الأربعة إلى العشرة، وقد تصل إلى الخمسين في الغزوات، والقسم يتكون من بيتين فأكثر، أما البحور فخمسة: المبيت، وهو الأكثر شيوعا؛ مكسور الجناح؛ والمشتب؛ والسوسي؛ والذكر. وموضوعاته عدة منها: الغزوات ويسمى الأيوبية؛ والألغاز ويسمى السولان؛ والفكاهة؛ والرحلات الخيالية؛ والهجاء؛ والمدح؛ والر اء وغيرها.

وعلى العموم لم يكن العصر الوطاسي عصر إبداع في الحضارة، بل كان في حقيقته عصر تقهقر وضعف في جوانب شتى، إذ لم يكن عصر استقرار يستجلبها؛ وإنما عصر اضطراب ونقصان لا زيادة، أو عصر حرب لا سلم.

إهـ.